المبحث الرابع
شعر رثاء المدن والممالك

مفهومه واتجاهاته:

اختلف الدارسون في مفهوم (رثاء المدن والممالك) ومنهم من فرق بين رثاء المدن ورثاء الممالك فأطلق الأول على تلك المدن التي سقطت في يد الأسبان واستلبت من أيدي المسلمين فبكاها الشعراء، وأطلق الثاني على دول ملوك الطوائف التي سقطت بدخول المرابطين إلى الأندلس، وما نظمه الشعراء من قصائد شعرية تأسى وتأسف على المجد الزائل والسيادة الآفلة لهؤلاء الملوك.[1]

ويصح أن ينسحب هذا المفهوم على المدن التي سقطت وخربت بفعل الفتن التي طرأت على الأندلس بسبب فساد الأحوال السياسية، وترديها، وفرق بين الاتجاهين من حيث حجم النتاج ونوعية القصائد التي نظمت في كل.

وفي هذا الموضوع يرى سعد شلبي أن الأندلسيين سجلوا السبق في رثاء المدن وأما رثاء الممالك فقد كان مقدمة وإرهاصاً لتفوقهم فيه.[2]

أطلق الدارسون على هذا اللون من الشعر أسماء أخرى فسمي بشعر النكبات والكوارث[3] والشعر الحزين، حيث وجد فيه بدير متولي حميد أحد ألوان ثلاثة تفوق فيها الأندلسيون،[4] وسماه عبد الله كنون الشعر الوطني،[5] وكذلك استوحى أحد الباحثين تسميته فجعلها موضوعاً لرسالته الماجستير الوطن في الشعر الأندلسي،[6] وجاء حديث شوقي ضيف عاماً عن هذا اللون من الرثاء، حيث سماه: (ندب الدول والبلدان)،[7] وسماه محمد مجيد السعيد (بكاء المدن والدول)، وكذلك (شعر السقوط)،[8] وكذلك (رثاء البلاد المغلوبة).[9]

يكاد الأندلسي ينفرد بهذا الموضوع، حيث كان القرن الخامس الهجري أحفل عصوره بالصراع الذي أدى إلى سقوط مدن الأندلس وممالكه، وقد طبع هذا اللون من الشعر بطابع أندلسي خاص، فعُدَّ أبرز معالم الشخصية الأندلسية،[10] وتفوق على شعر الرثاء

---

١ البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، ٣٢٤.
٢ نفسه، ص ٣٣١.
٣ أدب النكبات، مجلة النداء الاجتماعي، ١٩٥٥.
٤ قضايا أندلسية، ١٣١.
٥ الشعر الأندلسي، مجلة المجمع العلمي العربي، ١٣٩٣/٣/٣١.
٦ الوطن في الشعر الأندلسي، عبد الحميد إبراهيم شيحه دار العلوم جامعة القاهرة، ١٩٧٥.
٧ الرثاء، ص ٤٠، ٤٧. سلسلة فنون الأدب العربي، الفن الغنائي (٢).
٨ الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ٣٠٨، ٣٠٩.
٩ أبو البقاء الرندي، الداية، ٨٤.
١٠ وللموضوع وجه ثانٍ تجلى في النثر. فضلاً عن الشعر. إذ كتب د. سالم الهدروسي بحثه بعنوان: صدى

بصورة عامة، وعلى قصائد رثاء المدن والممالك في المشرق، بصورة خاصة، والأمر يعزى إلى وجود الدوافع والمحفزات التي لم يحصل مثيلها في المشرق، كما لم تكن بهذه السعة، وعمق التأثير، فقد كانت الحروب سجالاً بين المسلمين والأسبان، وكان يتفق أن تسقط مدينة فيستردها المسلمون ثانية، لتسقط ثالثة، مما يؤجج العواطف ويضرم المشاعر.. غيرة على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، يراها الشاعر مهدرة.. ويرى أن زمام الأمر قد أفلت من يديه.. في مدينة تقلب في نعيمها.. وحفظت مخيلته لها ذكريات عبقة، تمسي مهيضة الجناح، يفتك بها العدو، ويشعل نار العداوة والبغضاء، فما يكون منه إلا أن يرثي تلك المدينة الساقطة، بشعر أشبه ما يكون بالندب، والبكاء، والتفجع، في زفرات وأنات قلب كليم.

في الوقت الذي لم يكد شاعر المشرق يكفكف دموعه حتى يقبل على تهنئة الحاكم الجديد فانشغالهم بالخلفاء والحكام الذين خلفوا السابقين صرفهم عن إطالة الحسرة والبكاء على الدول السابقة، بينما كان سقوط الدولة بالأندلس يحمل أكثر من معنى داعياً إلى إطالة التأمل والاعتبار.

اتجه الشاعر الأندلسي تارة إلى تسليم الأمور إلى الله والشكوى لسوء الحال، والهرب من المدن الساقطة، بعد البكاء والعويل، وتارة إلى استصراخ الملوك واستنهاض هممهم، واستنصارهم، ويتجه إلى ضمائر المسلمين يسألهم شد العزائم، للانتقام من العدو المتربص، ثم يطبب الشاعر جراحه ويأسوها مخاطباً الرسول ﷺ مستمداً منه القوة والأيد تارة أخرى وفي كثير من الأحيان يتجه إلى الوصف التفصيلي للحالة التي حلّت بالمسلمين إثر سقوط مدنهم وممالكهم.

وإذا كان الشعر الأندلسي قد أحرز هذه المرتبة في هذا الميدان فليس معنى هذا أن المشرق لم يعرف هذا اللون، فالباحث يجد قصائد متناثرة في مصادر الأدب والتاريخ تصور النكبات وتحكي الويلات والمصائب، التي حلت بتلك الأمم، ومن أقدم ما قيل قول عدي بن زيد العبادي (ت٣٥ ق هـ) في قصيدة مطلعها:[1]

أرواح مودّع أم بكور لك فاعلم لأيّ حالٍ تصير

وهي في خمسين بيتاً، وعلى المنهج نفسه، قول الأسود بن يعفر يبكي آل محرق في داليته التي مطلعها:[2]

نام الخليّ وما أحسُّ رقادي والهم محتضر لديّ وسادي

ويذهب هذا المذهب الأعشى الأكبر (ت ٧ ق هـ) إذ يرثي قصر ريمان في قصيدته التي

النكبات الكبرى في النثر الأندلسي، مجلة جامعة مؤتة، العدد ٢٩٩/٢/١٠.

١ ديوان عدي بن زيد العبادي، ٨٤.٩٢.٢، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد، وزارة الاعلام، بغداد، ١٩٦٥.

٢ ديوان الأسود بن يعفر، رقم ١٣، تحقيق د. نوري حمودي القيسي، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، سنة ١٩٧٠.

مطلعها:[1]

أصرمت حبلك من لميـ ـسَ أم طال اجتنابه؟

ولو ألقينا نظرة على سفح التاريخ، لوجدنا الشعر سجلاً حافلاً في تصوير النكبات التي حلت في العالم الإسلامي بجناحيه، المشرق والمغرب... فقد رثى أبو العباس الأعمى دولة بني أمية، ورثى آخرون دولة العباسيين بدخول المغول إلى بغداد، ودولة الطولنيين وغيرها من الدول.

كما ندبوا مدناً إسلامية حلّت بها فتن جائحة... وهي ظاهرة مألوفة، تاريخياً فمن ذلك رثاء عمرو بن عبد الملك الوراق وأبي يعقوب الخريمي بغداد ١٩٧هـ بالفتنة التي حلت بين الأمين والمأمون. وكذلك رثاء البحتري دولة المتوكل العباسي ٢٤٧هـ، ورثاء ابن الرومي مدينة البصرة بإفساد الزنج إياها ٢٧٧هـ، وقد رثى الشعراء بيت المقدس ومدن الشام التي سقطت أثناء الحروب الصليبية... وبقى الشعر. حتى العصر الحديث. يرسم معالم المدن التي تسقط وتحل بها النكبات،[2] وهي جميعاً تدخل في الندب لا التأبين أو العزاء.[3]

لكن رثاء المدن والممالك في الأندلس تميز على صنوه بنضج التجربة الفنية للمعاناة التي استمرت عند الأندلسيين، وشهودهم هذه الحال بين سمعهم وبصرهم لتتكرر.. كما تميز بغزارة النتاج الشعري، ولذلك يعد الطاهر مكي بكاء الممالك المنهارة، والمدن الذاهبة فناً أندلسياً أصيلاً، وجدت بعض دوافعه في المشرق والمغرب على السواء، وخص الأندلس ببعضها، وتفرد في الحالين بأنه جرى مع هذه الدوافع إلى غايتها، فكان له معها قصيد رائع أحياناً، ودون الجيد أحياناً أخرى تبعاً لثقافة الشاعر، وطاقته النفسية، وحظه من تجارب عصره عمقاً واتساعاً،[4] إلا أن محمد رجب البيومي لا يذهب في نظرته لهذا اللون من الشعر مذهب المعادلة المنطقية، بل يجد أن من الإنصاف الإقرار بأن الأندلس قد برعت براعة مشهودة،[5].. وقبله أقر بهذا التفوق أحمد أمين.[6]

وعلى ضوء ما تقدم بنا من مفهوم رثاء المدن والممالك، سنتناول أبرز التجارب الشعرية، ضمن اتجاهين هما:

الاتجاه الأول:

رثاء الممالك الأندلسية التي قد خربت وفسد النظام فيها، بفعل المحن والفتن التي فتكت بها، بما كسبت أيديهم حيث صار الحكم فيها ملكاً عضوضاً، يطمع فيه القوي

١ ديوان الاعشى الكبير، ٢٨٩، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، ط النموذجية، د.ت.
٢ ينظر الرثاء، شوقي ضيف، ص ٥١.
٣ ينظر حول رثاء المدن في المشرق، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، ٢١٠ . ٢٢١.
٤ دراسات أندلسي، ٢٢٩.
٥ الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، ٢٦٦.
٦ ظهر الإسلام، ٢٠٣/٣.

والضعيف، ويبدو هذا الاتجاه واضحاً في عصر الفتنة (٣٩٩. ٤٢٢)، تلك التي وصفت بأنها جائحة ومبيرة فقد تعاقب خلالها على حكم الأندلس ثلاثة عشر حاكماً، فرثى ابن حزم قرطبة شعراً ونثراً ومما وصل قصيدة في عشرين بيتاً، يصفها بروفنسال بأنها "قصيدة عصماء لا يعدلها في نوعها شيء"[1] ومطلعها:[2]

سلام على دار رحلنا وغودرت	خلاءً من الأهلين، موحشة قفرا

وفيها حسرة وبكاء على ما نزل بتلك المدينة من خراب:

فيا دارُ لم يُقْفرك منا اختيارنا	ولو أننا نسطيع كنتِ لنا قبرا
ولكن أقداراً من الله أنفذت	تدمرنا طوعاً لما حل أو قهرا

ورثاها شعراء آخرون منهم ابن شهيد (ت٤٢٦هـ) في قصيدة ومقطعة يقول في الأولى:[3]

ما في الطلولِ من الأحبة مخبر	فمن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألن سوى الفراق فإنه	ينبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا	في كل ناحية وبادَ الأكثر

والقصيدة كسابقتها فيها تفجع وبكاء وندب لدار ضمت ذكريات عبقة للشاعر، حيث يستذكر محاسنها، وجمال الطبيعة فيها، وقد ضرب الأمن والسلام رواقه فتعمم القوم بجمالها وبهروا بفتنتها المتمثلة في قصورها، الزاهرية والعامرية، والمسجد الجامع، ومسالك الأسواق، حتى عصفت بها الفتنة فأذهبت بهجتها ونقضت بناءها الشامخ، وتذهب نفسه حسرات، عليها وعلى المعالم الحضارية، والخسارة التي حلت بإزهاق نفوس كثيرة من العلماء والأدباء، وكان أحدهم، أبو الوليد بن الفرضي (توفي لست خلون من شوال سنة ٤٠٣هـ)، وبقي في داره ثلاثة أيام مقتولاً،[4] وفي هذا تجيء أبيات ابن شهيد تفيض بمعاني الأسف والأسى على ذكرياته فيها:

يا جنةً عصفت بها وبأهلها	ريح النوى فتدمرت وتدمروا
أيام كانت عين كل كرامة	من كل ناحية إليها تنظر
أيام كانت كفُّ كل سلامة	تسمو إليها بالسلام وتبدر
حزني على سَرواتها ورواتها	وثقاتها وحماتها يتكرر
نفسي على آلائها وصفائها	وبهائها وسنائها تتحسر
كبدي على علمائها، حلمائها	أدبائها، ظرفائها، تتفطر

ولعلها أطول قصيدة وصلت إلينا تصور فتنة قرطبة، حيث تبلغ ثلاثين بيتاً، وأما مقطعته فهي نونية مردفة بألف موصولة بياء مختومة بهاء السكت التي تحكي

---

١ سلسلة محاضرات، ص ١٣.
٢ أعمال الأعلام، ١٠٧. وينظر تاريخ الأدب الأندلسي، ١٣٩/١. وقد أخل بها ديوانه بتحقيق د. صبحي رشاد عبد الكريم، ط دار الصحابة، طنطا، ١٩٩٠.
٣ ديوانه، رقم ٢٥.
٤ الصلة، ٢٥٢/١.

الحسرات والزفرات يرثي فيها قرطبة عجوزاً شمطاء حيث يقول:[1]

عجوز لعمر الصبا فانية لها في الحشا صورة الغانية
تردّيت من حزن عيش بها غراماً فيا طول أحزانية

وتبدو أبعاد هذه الفتنة والآلام والأشجان التي اعتملت في صدور عدد من الشعراء حيث أرخوها، فيما ينقل إلينا الشيخ محي الدين ابن عربي أبياتاً قال إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها رثاءً، وهي:[2]

ديارٌ بأكناف الملاعب تلمعُ وما إن بها من ساكنٍ وهي بَلقَعُ
ينوحُ عليها الطير من كل جانبٍ فيصمت أحياناً، وحيناً يرجّع
فخاطبت منها طائراً متغرداً له شجن في القلب وهو مروّع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي؟ فقال: على دهر مضى ليس يرجع

ونبقى مع حاضرة الأندلس وواسطة عقدها (قرطبة) حيث حفظت لنا المصادر قطعتين غير منسوبتين في البيان المغرب، مطلع الأولى:[3]

بـــك علـــى قرطبـــة الـــزين فقـــد دهتهـــا نظـــرة العـــين

ومطلع الثانية:[4]

أضعتم الحزم في تدبير أمركم ستعلمون معاً عقبى البوار غدا

وما ذهب وفقد من شعر في رثاء المجد الباذخ، والعز الشامخ، لهذه المدينة كثيرة فقد قال الخولاني عن ابن عصفور الحضرمي، أبي القاسم أحمد بن محمد (ت٤١٠هـ): "أنشدني كثيراً من أشعاره في رثاء قرطبة"[5] ولم يصل إلينا منها شيء.

ويبدو أن أحداث الفتنة لم تقتصر على قرطبة. مركز الخلافة. بل تجاوزتها إلى مدن الأندلس الأخرى، فقد أرخ أبو إسحاق الألبيري الشاعر الزاهد (ت٤٦٠هـ) لأحداث خراب البيرة[6] سنة ٤٠٠هـ، وهي أحداث مماثلة لنظيرتها في قرطبة في آثارها السلبية، ويعلل أبو إسحاق تلك النكبة بكثرة الذنوب وترك الفروض والواجبات، وهي في عشرين بيتاً:[7]

يضـيع مفـروض ويغفـل واجـبٌ وإنـي علـى أهـل الزمـان لعاتـب
أتنـدب أطـلال الـبلاد ولا يـرى لألبيـرة مـنهم علـى الأرض نـادب
فآها الوفـا، تقتضي عـدد الحصـا على عهدها ما عاهدتها السحائب
وأيـن بحـار العلـم والحلـم والنـدى؟ وأيـن الأكـف الهاميـات السـواكب؟

---

١ ديوان ابن شهيد، رقم ٦٩.
٢ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، ٤٠٠. ٤٠١.
٣ البيان المغرب، ١١٠/٣. ط دار الثقافة، بيروت. فرحة الأنفس، ٣٠٦/٢/١.
٤ البيان المغرب، ١١٠/٣.
٥ الصلة، ٣١/١.
٦ البيرة: كانت من حواضر الأندلس الجليلة، أسسها عبد الرحمن بن معاوية، واسكنها مواليه، ثم خالطهم العرب بعد ذلك، خربت في الفتنة وانفصل أهلها إلى غرناطة وبينها ستة أميال. ينظر الروض المعطار، ٢٨.
٧ ديوانه، ٧٣. ٧٥.

شققنا على من مات منهم جيوبنا وكان قليلاً أن تشق الترائب
لساءلت عنهم رسمها فأجابني "ألا كل شيء ما خلا الله ذاهب"

ومما يندرج ضمن هذا الاتجاه الممالك التي رثيت في عصر الطوائف بدخول المرابطين، وقضائهم على حكامها، وأشهر مملكتين نظمت فيها قصائد الرثاء، مملكة بني عباد في إشبيلية، ومملكة بني الأفطس في بطليوس.

وقد حظيت الأولى بمكانة رفيعة بين ممالك الأندلس، حتى نستطيع أن نعدها أقوى ممالكها في عصر الطوائف، ولذلك اجتمع فيها من الشعراء عدد كثير، وممن عاش في رخاء بني عباد، شاعرهم ابن اللبانة الداني الذي احتفظت ذاكرته بصور عميقة الأغوار لآخر ملوكها المعتمد بن عباد فألف بعد زوال ملكه كتابين هما نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العبادية وكتابه الاعتماد في أخبار بني عباد ولم يصل من الكتابين سوى شذرات متناثرة في الكتب.[1]

وقد تضمن ديوانه قصائد تفيض بمعاني الأسى والأسف على الملك الزائل، والمجد الحائل، بعد أن خُسِف بالمعتمد وأسرته، ورُحل عن إشبيلية منفياً إلى أغمات، في بلاد المغرب، وأشهر قصيدتين تائية مطلعها:[2]

لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى من مناياهن غايات

وهي في اثنتين وأربعين بيتاً، وبعد أن يبكي على دولتهم الزائلة يمني نفسه في أن تعود ثانية حيث يقول:

لو كان يفرج عنه بعض آونة قامت بدعوته حتى الجمادات
لهفي على آل عباد فإنهم أهلةٌ ما لها في الأفق هالاتُ

وأما القصيدة الثانية فهي أجود شاعرية، وأدق في التعبير عن معالم النكبة وأطول نفساً من سابقتها ومطلعها:[3]

تبكي السماء بمزن رائح غادي على البهاليل من ابناء عباد

ونستطيع أن نتعرف على مدى براعة الشاعر في قصيدته بموازنتها على ما نظم من أشعار في هذه النكبة، فبين أيدينا قصيدتان لشاعرين مشهورين.

الأولى: لابن حمديس الصقلي الذي كانت تربطه صلات حميمة بالمعتمد بن عباد، فدعاه الوفاء إلى أن يوجه قصيدته إليه وهو في سجنه وفيها يقول:[4]

أبادَ حياتي الموتُ إن كنت ساليا وأنت مقيم في قيودك عانيا
وإن لم أبار المزن قطراً بأدمع عليك فلا سُقّيت منها الغواديا
وهل أنا إلا سائل، عنك سامع أحاديث تبكي بالنجيع المعاليا

---

١ ينظر ما وصل من هذه النصوص النثرية في ديوان ابن اللبانة الأندلسي بتحقيقنا، ص ٢٣٢ . ٢٣٩.
٢ ديوانه، رقم ١٤.
٣ ديوانه، رقم ٢٦.
٤ ديوانه، رقم ٣٥.

قيودك صيغت من حديد ولم تكن لأهل الخطايا منك إلا أياديا

وفيها يسترسل في الحديث عن محامد المعتمد ومكارمه، ويصف شجاعته وبأسه وجوده ونوءه، والخلاء الذي داهم القوم بذهاب دولته.. وليس له اختيار في القدر الذي نزل به ويختم القصيدة التي جاءت في ستة وثلاثين بيتاً بوصف ممدوحه بأنه الحي الذي يستحق الرثاء:

سأدمي جفوني بالسهاد عقوبة إذا وقفت عنك الدموع الجواريا
وأمنع نفسي من حياة هنيئة لأنك حي تستحق المراثيا

ومن هنا فإن شخصية المعتمد بن عباد، أخذت أبعاد الشخصية الأسطورية. بعد نكبته. تلك الأبعاد التي تسبغ على العظماء بعد وفاتهم.

والثانية: لابن عبد الصمد وقد نظمها بعد عام من وفاة المعتمد (ت٤٨٨هـ) وفيها يقول:

ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عدتك عن السماع عوادِ

وقد كان هو الآخر من شعراء المعتمد بن عباد إلا أن الدراسة المتأنية للقصيدة تبين لنا تأثر الشاعر في داليته بدالية ابن اللبانة، التي نظمت سنة ٤٨٤هـ، وقد اختار الوزن والقافية وحركة الروي التي التزمها ابن اللبانة في قصيدته.[1]

يستهل ابن اللبانة قصيدته بالحديث عن أفضال بني عباد، ومكارم أخلاقهم، وسجاياهم في الكرم، التي طبعوا عليها، والمنزلة السامقة التي أحرزوها فيصفهم بالجبال، والمزن، وباليانعات التي ذوت أنوارها، ويذهب إلى أكثر من ذلك، حيث يجعلهم كعبة الآمال، ويعزي الضيوف والنزلاء، كما يواسي الفرسان والأبطال الذين تنعموا في ظل العبابدة، وتبلغ المأساة ذروتها حين يجسم لنا مشاهد مؤلمة، ومناظر محزنة، من ترحيل بني عباد في البحر فيقول:

نسيت إلا غداة النهر كونهم في المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العَبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حان الوداعُ فضجّتْ كل صارخةٍ وصارخ من مفداةٍ ومن فاد
حُط القناع فلم تحجبْ مخدرةٌ ومزّقتْ أوجه تمزيق أبراد
سارت سفائنهم والنّوح يصحبها كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد

وهكذا يمضي شاعرنا بهذه النبرة الحزينة، مصوراً مشهد دولة تهوي إلى أسفل من علٍ "إن تناسق التعبير مع الشعور، وتطابق الانفعال مع شحنات الألفاظ، واستنفاذ العبارة اللفظية للطاقة الشعورية هو ما يوصف بأنه عمل من صنع الإلهام".[2]

---

١ ديوان ابن اللبانة الأندلسي، دراسة وتحقيق، ص ٧٨ . ٨٤.
٢ النقد الأدبي، ٣٨.

فقد مضت المأساة على أوجها، وأسرفت ريشة الشاعر في تصوير شدة الفاجعة، فإنك تسمع "كل صارخة وصارخ من مفداةٍ ومن فاد" وتبح الحناجر، وتغص الأصوات بالعويل والصراخ، وتستسلم مع الحادي، حين يسقط في يدها.

ويرى أحد الباحثين أن للألفاظ أهميتها ومزيتها في التعبير الفني وجماله، مستأنساً بأبيات ابن اللبانة فيقول: "فالألفاظ (حط، ومزقت، وضجت، وصارخ، وصارخة) لها من الأهمية في تصوير المشهد، واستنفاد التجربة، بحيث لا ينكرها منكر مهما تعصب لوجهة نظره" ثم يعقب بقوله: "وأشهد أني قد اهتزت فرائصي فزعاً، كلما قرأت كلمات ابن اللبانة، كأن هذه الأبيات وأخريات معها سهامٌ نفذت إلى مشاعري، فهزتها هزا، ومزقتها أي تمزيق، وأشعرتني بالمأساة التي حلت بالأندلس قبل فلسطين".[١]

والملاحظ أن الشاعر يعتمد في لغته على ضرب من تكرار الحروف، فقد تكرر حرف القاف، وهو من الحروف الانفجارية، خمس مرات في (القناع، مزقت، تمزيق، القطائع، مقطعات)، وتكرر حرف الحاء وهو حرف احتكاكي ست مرات في البيتين الرابع والخامس كما ورد في ثلاث مرات أخرى.. والتكرار ضرب بلاغي يعين على تحقيق الجرس الموسيقي المتناغم مع أجواء القصيدة، وقيمة القصيدة فنياً لا تأتي من أسلوبها فحسب، إنما بزخم العاطفة التي تزخر به، "فربما لم نجد في الشعر الأندلسي عاطفة أعمق غوراً، وأشد لهباً، عاطفياً من تلك القصائد التي قالها ابن اللبانة، وابن حمديس، وابن عبد الصمد في نكبة المعتمد".[٢]

وممن تحدث عن جانب المأساة في دولة بني عباد ممثلاً في شخص المعتمد بن عباد، أحمد هيكل.[٣]

ومن تلك الممالك: مملكة بني الأفطس في بطليوس، وقد سقطت هي الأخرى بدخول المرابطين سنة ٤٨٧هـ، ولم تحظ بعناية الشعراء على نحو ما تقدم معنا في مملكة بني عباد باستثناء المراثي التي نظمها شاعرها أبو محمد بن عبدون اليابري (ت ٥٢٠ه)، وتأتي أشهر قصائده رائيته المعروفة باسم البسامة ومطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

وتتعدد روايات القصيدة لشهرتها، وذيوعها، حتى أنها بلغت خمسة وسبعين بيتاً برواية المعجب، وأحرزت إعجاباً لدى القدماء والمحدثين، فرأى ابن بسام أنه اقتفى فيها أثر فحول القدماء، وخالف نهج المحدثين.[٤] وأما المراكشي فقد نعتها بأنها "قصيدته الغراء، لا بل عقيلته العذراء، التي أزرت على الشعر، وزادت على السحر، فجلت عن

---

١ في الرؤيا الشعرية، ٩٨.
٢ تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ١٨٨.
٣ دراسات أدبية، بحث المعتمد بن عباد الشاعر الملك السجين، ٢٧٨ . ٢٨٧.
٤ الذخيرة، ٨١٨/٢/١.

أن تسامى وأنفت من أن تضاهى، فقل لها النظير، وكثر إليها المشير".[1]

وذهبوا إلى أكثر من ذلك، حين أفردوها بالشروح كما فعل ابن بدرون، وقد درس شرحه وقام بنشره المستشرق الهولندي دوزي ورأى في ثناء النقاد أمثال ابن خاقان وابن الخطيب مبالغة، وبعداً عن الحقيقة، فما لمسه في أسلوبها أنها أثقلت بالزخارف والزينة، وأنها عجزت عن أن تثير كوامن المشاعر،[2] وعن مثل هذا الرأي صدر بالنثيا كذلك فزعم أنها: "فاترة الروح، مدرسية المنهج".[3]

والحقيقة أنها على الرغم من سيطرة الجانب التاريخي عليها. ليدل الشاعر على سعة ثقافته. جاءت في شوطها الأخير، تدل على عاطفة جياشة، إذ يأسف على المجد الزائل، ويترحم على عزهم المنصرم.

وقد ترجمت القصيدة إلى الفرنسية، والأسبانية،[4] ومن المحدثين أعجب بها عبد الله كنون لا سيما فيما سلكه ابن عبدون من البكاء والاستبكاء، على ضياع ملك سادته، وإبادة الدهر لهم من غير أن يعرض بخصومهم المرابطين، ولا أن يتناولهم بأدنى تجريح"،[5] وتتجلى براعة الشاعر في استعراضه للأمم السابقة بشكل متكامل متسلسل بدأ بالأقدم فالقديم.

الاتجاه الثاني:

يتمثل في رثاء مدن أندلسية سقطت بأيدي ملوك الأسبان وكان ذلك نتيجة متوقعة للحال التي بلغها ملوك الطوائف، وقد صوّر لنا هذه الحال المقري نقلاً عن الوطواط (ت٧١٨) بقوله: "ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع... فصار كل منهم يشن الغارة على جاره، ويحاربه في عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي، ويراوح معاقلهم بالعيث ويغادي...".[6]

بهذه المقولة استهل صاحب النفح حديثاً تفصيلياً عن رثاء مدن الأندلس الساقطة بأيدي الأسبان.

ومن أعظم الأحداث المبكرة التي نزلت بالأندلس، نكبة (بربشتر) التي كانت من أمهات مدن الثغر الأعلى حصانة ومنعة، ولكن غزاها أهل غاليش، والروذمانيون على غرة، وقلة عدد من أهلها وعدة، فحاصروها أربعين يوماً، حتى سقطت سنة ٤٥٦هـ "وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة".[7]

---

١ المعجب، ١٢٨ . ١٢٩.
٢ تاريخ الفكر الأندلسي، ١١٩.
٣ نفسه، ١٦.
٤ نفسه، ١١٩.
٥ الشعر الأندلسي، مجلة مجمع اللغة العربية، ١٩٥٦. ١٣/٣/٣٨٠، ٣٩٦.
٦ نفح الطيب، ٤/٤٤٦.
٧ النفح، ٤/٤٥٠.